ويوطد نفوذه في العراق ، فلما وصل جيش معاوية الانبار اضطر الحسن للتصدي له ، وذكر الدينوري أن الحسن حين وصل (ساباط) بالقرب من المدائن رأى من جنده زهدا وانصرافا عن الحرب ، فخطب فيهم ودعاهم الى الجماعة ونبذ الفرقة وقال : (أيها الناس اني قد اصبحت غير محتمل لمسلم ضغينة ، واني ناظر لكم كنظري لنفسي وأرى رأيا فلاتردوا علي رأي ، أن الذي تكرهونه من الجماعة أفضل مما تحبون من الفرقة ، وأرى أن اكثركم قد نكل عن الحرب وفشل في القتال ولست أرى أن احملكم على ماتكرهون)[٢١] ولاشك أن الحسن قد عبر بهذا القرار عن ادراك عميق للموقف ونظرة واقعية لحقائق الامور بعد الذي لاحظه من تخاذل جنده وعدم الاطمئنان لنواياهم ، وكان في عسكره جماعة ممن تأثروا بآراء الخوارج ، فقالوا : (كفر الحسن كما كفر ابوه من قبل) اشارة الى قبول علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ التحكيم بينه وبين معاوية ، فحرضوا الجند ودخلوا معسكره ونهبوا متاعه ، وطعنه الجراح بن سنان الأسدي بخنجر مسموم في فخذه ، فحمل الى المدائن وعولج حتى شفي من جرحه[٢٢] .

ولما رأى الحسن انه غير آمن على نفسه وان اصحابه يتربصون به كتب الى معاوية في الانبار يعرض عليه الصلح والتنازل عن الخلافة